قبيلة المرازيق التونسية بين البداوة والتحضر

أ. د. حمد العزيز نجاحى[1]

هذه الدراسة وددنا فيها الكشف عن آفاق فى عالم مدينة دوز – موطن قبيلة المرازيق بالجنوب التونسى – من خلال التداخل بين البداوة والتحضر ونعنى به العلاقة الجدليّة بين القبيلة والدولة. وهى من الدرسات التى كانت بعيدة – قليلا أو كثيرا – عن البحث العلمى الاجتماعى. ذلك أن الدراسات الجهويّة والمحليّة تعدّ ظاهرة حديثة برغم أنّ البحث الإجتماعى والتاريخى الكولونيالى قام بهذه التجربة وكنّا ننتقده على جزئيّاتها وسلبياتها ولكن الآن وقع تحوّل من الدراسات الماكرو سوسيولوجيّة إلى الدراسات الميكرو سوسيولوجيّة التى تنطلق من أمثلة صغرى.

فى هذا الإطار، تندرج دراستنا لهذه المنطقة التى تعتبر نموذجا للمقارنة والتعميم فى المجتمعات الصحراويّة وشبة الصحراويّة. إنّ اختيارنا لمدينة دوز يعود لعدة أسباب منها:

– مدينة دوز لا تزال يتعايش بها طابع البداوة مع طابع التحضّر حيث نجد بعض القيم ريفيّة أى لأهل البادية كقيم الروابط القبليّة وهذا نلاحظه بوضوح من توزّع العائلات فى الأحياء السكنيّة، والكرم وهو من القيم التى تتقلّص عادة فى المدينة، وفى مدينة دوز مازال يعيش فيها التكاتف فى الأفراح والأتراح فى حين فى المدينة يتقلّص عادة هذا التفاعل.

– مدينة دوز[2] تُعدّ المدينة التونسيُة الرئيسيّة فى نفزاوة[3] (عدد السكان/ عدد الأسر، الواحات...).

– مدينة دوز أهلها بدو رحّل وأصبحوا أصحاب الواحات التى تتطلب استقرارا لأهمّيتها، فواحات دوز أكثر من واحات نفراوة وهى (واحات نفراوة) تساهم بـ ٦٥٪ من الإنتاج الوطنى من التمور.

---

(١) أستاذ التعليم العالى بقسم علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس جامعة صفاقس (تونس).

(٢) مدينة دوز تقع فى الجنوب الغربى من البلاد التونسية جنوبى شط الجريد، تعد بوابة الصحراء التونسية وهى على الحدود السياسية للجزائر.

(٣) المنطقة الواقعة جنوبى شط الجريد وهى المعروفة اليوم بقبلى.

– مدينة دوز لا تعيش على الفلاحة (النخيل والإبل) وصناعة السّياحة فقط بل تعيش على الوظيف والعمّال بالخارج.

– كثرة الجمعيّات بالمدينة.

– تميّز مدينة دوز بظاهرة إبداعيّة: الشعر الشّعبى.

لقد حاولنا تتبّع مسيرة المجتمع المحلى بدوز (قبيلة المرازيق أساسا) فى حلها التى تؤدى عملا وترحالها واستقرارها فوقفنا – قليلا أو كثيرا – على العلاقة الجدليّة بين القبيلة والدّولة وخاصّة الدولة التونسيّة الحديثة بمؤسساتها الإداريّة: المعتمديّة، البلديّة، الصحّة، التعليم، السياحة، الفلاحة... تنمويّا جهويّا مهما، مركزين على التغيّر الحضارى وتنمية المجتمع.

لقد تمّ إعداد هذه الدّراسة من خلال علم الاجتماع وعلاقته بالعلوم المجاورة كالتاريخ والجغرافيا والأنتروبولوجيا، فعلاقة الجغرافية بعلم الاجتماع مثلا علاقة مهمة ناشئة من كون العوامل الجغرافية والمناخيّة والمعاشيّة تؤثر تأثيرا بالغا فى تطور المجتمع وحجم السكان ونوعيّته وغذائه وحالته الاقتصادية جملة وتفصيلا[1] إن هذه الدراسة تقوم على قاعدة عريضة من معطيات الحقائق المتعدّدة وتظلّ حضارة المجتمع (ثقافته) حجر الزّاوية من هذه الحقائق حيث يقع التركيز على مظهرى الحضارة المادّى وغير المادى (الذهنى – الروحى) ومن خلال التكامل بينهما (المظهر المادى والمظهر غير المادى) يصبح لمسألة التغيّر الحضارى وتنمية المجتمع أساس علمى وعملى رصين.

إن مدينة دوز مدينة صحراويّة حيث زراعة النخيل والمراعى الطبيعية الواسعة التى تربّى فيها الإبل وأنواع أخرى من الماشية (الغنم والماعز) والدّواجن فساهمت قليلا أو كثيرا فى ربط الريّف بالحضر، «كأسلوبين من أساليب الحياة الاجتماعية، لأن كلا منهما يقوم بالآخر ويعتمد عليه، ولا يستطيع الاكتفاء بنفسه دونه فالريّف يقدّم للحضر الغذاء (اللحوم/ الألبان...) والمواد الأولية التى تقوم عليها كثير من صناعاته، ويقدّم الحضر للريّف منتجاته الصناعيّة»[2] ولعلّ الأسواق اليومية والسوق الأسبوعية بالمدينة خير دليل على التفاعل الاجتماعى بين الحضر والمدر.

(١) د. حاتم الكعبى، د. محمد المشاط، مبادئ علم الاجتماع، بغداد مطبعة العانى ١٩٦٧م، ص ٥٢ – ٥٣.

(٢) عبد المجيد عبد الرحيم، علم الاجتماع الحضارى، مكتبة الإنجلو المصرية، ١٩٧٦م، ص١٩٣.

تجدر الإشـارة هنا إلى أنّ سـوق دوز من أكبر الأسـواق بالبلاد. وقد كان بعيدا عن نواة المدينة أمّا الآن فقد التحمت المبانى القديمة بالحديثة وتعدّدت المحلات التجارية.

ومن ملاحظة موضع مدينة دوز وجدنا أنه يمتاز بما يلى:

- إنه يرتكز حول أضرحة الأولياء وهو يلبّى المعتقد الدّينى.
- إنّ موضع المدينة يمتد إلى جواره الأراضى الزراعيّة.
- إنه بجوار مصادر المياه لذلك كانت الواحة.
- يتوفر فى الموضع قدر كاف من سمة الحماية من مخاطر القوى الطبيعية المفاجئة.

ومـن خصائص موقع مدينـة دوز يتضح أنها تقع بإقليم مناخى متميّز عن مناخ وسـط وشمال تونس.

نسـتخلص ممّا سـبق أنّ مناخ جهة دوز صحراوى أى إنه قارئ جاف بارد شتاء حار صيفا يسـتقبل الإنسـان بلفحات حارّة تهبّ من الشـرق والغرب، يتفاءل السـكان بذلك الطقس لأنه مفيد للإنسـان والنخيل إذ يسـاعد على إنضاج بعض المحصولات الفلاحية خاصة صابة التمور.

الحدود المساحية:

إن لرقعة الأرض التى تقع بضمنها المدينة أهمية من حيث المساحة واتساعها أو تقلصها ومن حيث المدن المنافسـة التى تسـتطيع أن تقـدم الوظائف نفسـها ودوز المركز الإدارى للمعتمديّـة وهى تنفـرد على معتمدية الفـوار مثلا بعدد كبير من الوظائف منها الأسـواق التجارية والخدمات الاجتماعية المختلفة.

ويمكن إجمال هذه الأهمية فى كونها:

* مركزا تجاريا يخدم رقعة المعتمدية وبعض المعتمديات المجاورة كالفوار.
* إن دور موطن المرازيق ومكان إقامتهم وأصولهم التى تعود إلى قبيلة بنى سليم ورد على لسان العلامة عبد الرحمن بن خلدون الذى أورد فى المجلد السادس من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر.
* إن أولاد مـرزوق ينتمـون إلى قبيلة بنى سـليم وقد ورد بالصفحـة (١٧١) مـن هـذا المجـلد شـجـرة أنسـاب فـيهـا إشـارة إلى المرازيق نوردها حرفيّا: حميد بن سنان بن

عثمان بن مرزوق بن معلا بن ملتيتة بن قاص بن سالم بن وهب بن رافع بن ذياب بن ربيعة بن امرئ القيس بن بهته بن سليم[1].

لموقع دوز أهمية استثنائية لأنه على حافة منبع فيّاض من منابع البداوة وهو الصحراء، فكان الجنوب التونسـيّ يتلقّى الموجات البدويّة الواحدة تلو الأخرى عن طريق الفتوحات العسكريّة والغزو وكلا هذين النوعين من الموجات لابدّ أن يؤثّر قليلا أو كثيرا، فتنتشر قيم البداوة وتحاول التغلغل فيه فى مختلف فئاته وطبقاته.

حـين يدرس الباحث تاريخ البـداوة العربيّة، منذ أقدم عصوره حتىّ عصرنا هذا، يجد القيـم البدويّـة تطغى فيه حينا ثم تتقلص حينا آخر وذلك تبعا لوضع الدّولة فيه من حيث ضعفها أو قوتها، إن الدولة أسـاس مهّم من أسـس الحضارة، فـإذا قويت الدولة فى بلد ما بحيث اسـتطاعت أن تقمع النـزاع الداخلى فيه وتضرب على أيـدى اللصوص وقطاع الطـرق، ازدهر الإنتاج الزراعى والتجارى والصناعـى، وعمرت المدن، وانهمك الناس فى حرفهم المختلفة لا يخشون شيئا، وعندئذ وجدنا القيم البدوية تتقلص تدريجيا حيث تظهر مكانها القيم الحضريّة القائمة على الطاعة والاحتراف[2].

إن حبّ الغزو لا ينسحب على كل القبائل فقد اشتهرت فى منطقة نفراوة قبيلة المرازيق بنبذ الغزو، ولذلك عاشوا طوال حياتهم فى هذه الجهة لم يغزو غيرهم، كما يفعل الأعراب وإنما يتولون الدّفاع عن أنفسهم وعن أجوارهم، ولهم ذكر فى هذا الصدّد ورجال وأبطال[3] ولعلّ مردّ ذلك المكانة الدينية للمرازيق فهم يعتبرون حماة زاوية ترعى العلم وعمل الخير[4].

لقـد كان أفراد قبيلة المرازيق «يحرثون ويزرعون أراضى السـقى فى أوائل الخريف ثم يقضون الشـتاء بواحة دوز فيسـتغلون تمورها وعند حلول الرّبيع ينتجعون الصحراء بإبلهم وأغنامهم باحثين عن الأعشـاب فيمرّون ببئر غيذان وبئر زميط، وبئر سـلطان، وبئر عون،

(١) عبـد الرحمـن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريـخ العرب والعجم والبربر ومن عاصره من ذوى السلطان الأكبر، القسم الأول، المجلد السادس، لبنان، دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر، ١٩٦٨م، ص ١٧٣.

(٢) د. على الوردى، دراسة فى طبيعة المجتمع العراقى: محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربى الأكبر فى ضوء علم الاجتماع الحديث، بغداد، مطبعة العانى، ١٩٦٥م ص١٣.

(٣) محمد المرزوقى، على المرزوقى، ثورة المرازيق ١٩٤٣م، تونس دار بوسلامة للطباعة والنشر ١٩٧٩م، ص ١٩.

(٤) د. الشـيبانى بنبلغيث، وضع القبائل فى منطقة نفزاوة قبل الحماية الفرنسـية على تونس، بحث غير منشـور ملتقى محمد المرزقى الرابع بدوز، نوفمبر ١٩٩١م ص٣.

ويصلون أحيانا إلى غدامس بليبيا، وبحلول الحرارة الصيفيّة وموسم الحصاد، يصعدون إلى السقى»[1] وقد ظلوا ردحا من الزمن بين استقرار وترحال ذلك أنّ النمو الحضرى فى العهد الاستعمارى الفرنسى شمل العاصمة وأهم المدن المطلة على البحر التى استفادت من تركيز البنى التحتيّة الميناءيّة والمائية والكهربائية والطرقات والنقل الحديدى ومن تنفيذ برامج الإنشاء الكبرى وتركيز الصناعات الاستعماريّة الأولى، وفى الوقت نفسه أهمل الوسط والجنوب إلا فى بعض المواقع المهمة[2].

إن المستعمرات قد تأثرت تأثيرا بالغا بالوضع الذى أراده لها المستعمر من جعلها مصدرا مهما للمواد الخام.

أمّا بعد الاستقلال فقد «اعتبرت السلطة الجديدة أنّ المدينة جسم الإطار الأفضل لدفع التنمية وتعصير الاقتصاد والمجتمع وتأطير السكان سياسيا وأيديولوجيا، وتتحقق هذه الأهداف طبعا عن طريق ذر المصالح الإدارية والتجهيزات العمومية على كامل التراب التونسى وبتركيز المشاريع الاقتصادية»[3] فبدأت التجمعات السكنية تتكوّن حول الواحات والبساتين حيث تسنى زراعة البقول والاعتناء بالنخيل زد على ذلك فتح المدارس الابتدائية ثم الثانوية التى أجبرت الناس على الاستيطان لتمكين الأطفال من التعليم فاندثرت الخيمات وعوّضت بالمساكن الشعبية، كما بدأت مكانة الجمل الاقتصادية تتقلص شيئا فشيئا، تاركة المجال للنخيل خاصّة والفلاحة عامّة، ولم يعد يتنقل إلا الرّعاة الذين يجوبون البلاد من صحرائها إلى تلالها[4].

وأقلعت القوافل منذ أكثر من أربعين سنة عن الترحال الذى يقوم على مبدأ المقايضة كما أقلع مربّو الحيوانات من المزاريق والعذارى عن الذهاب جماعات لشراء القمح والشعير من قفصه والقيروان والكاف[5].

---

(١) الناصر البقلوطى، «عكاظية دوز لسنة ١٩٧١م»، مجلة الفنون ولتقاليد الشعبية عدد ٥، المعهد القومى للآثار والفنون، تونس ١٩٧٦، ص ٩٠ – ٩١.

(٢) الحبيب دلالة، عوامل التحضر فى البلاد التونسية (كتاب جماعى: الظاهرة الحضرية والتنمية فى تونس) (سلسلة مراجع)، تونس، دار سيراس للنشر ١٩٩٣م، ص٤٩.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) الناصر البقلوطى، المرجع السابق، ص٩٠ – ٩١.

(5) Ander Louis, monde d'hier et d'aujourd'hui dans le sud tunisin, ed. Sud, la calade .aix – provence, 1979, p.269

ولئن خضع قيام مدينة دوز تاريخيا إلى عوامل متعدّدة منها العوامل الطبيعية والجغرافية والنفسـيّة (ضرورة الاجتماع تأمينا لحياة الأفراد)، والدينية والسياسـيّة، ففى اعتقادنا أنّ العاملين الاقتصادى والدينى كانا أساس نشأتها.

ففى الماضى القريب والبعيد لعب هذا الموقع (دوز) ضمن الجنوب التونسـى دورا مهما فى الحركة التجارية عبر الصحراء وذلك برغم صغر مساحته إذا قارنّاه بجنوب بقيّة بلدان إفريقيا.

لقد «شكلت مسالك القوافل عبر الصحراء جسور تلاقح حضارى عميق الأثر بين الشعوب الإفريقية شمال الصحراء وجنوبها، نسجت بين هذين الجزأين عُرى اقتصاديّة واجتماعية وثقافية وثيقة على مرّ الزمن... فقد نشطت تيّارات التبادل الحضارى عبر الصحراء بشكل لم يسـبق له مثيل فى تلـك الفترة الممتدّة من القرن ٨ إلى القـرن ١٦ الميلاديين، وتعدّدت المحـاور التجاريّة وعرفت فترات ازدهـار وانحطاط تبعا للظـروف الطبيعية والاقتصاديّة والسياسية والأمنيّة فى المنطقة»[1].

لقد أخذت مدينة دوز بالاتساع السريع فى السّنين القليلة الماضية بمختلف الاتجاهات والملفـت للانتباه أنّ تصميم الشّـوارع الرئيسـية للمدينة وكذلك التهذيـب الذى لقيته هذه الشوارع من قبل البلديّة قد أخذ بعين الاعتبار مناخ الدينة من حرارة ورياح.

إننا نرى مدينة دوز بعيدة عن هذه الأخطار بفعل تصاميم البناء التى تأخذ بعين الاعتبار الموقع والموضع فجاءت شـوارعها الرئيسـية متصديّة قليلا أو كثيرا للرياح (ريح الشهيلى) فضلا عن تصدّيها لظاهرة التصحّر والانجراف بالوسائل الكلاسيكيّة كمصدات الرّياح.

ويجدر بنا أن نذكر أنّ المدينة فى تاريخها الطويل قد لعبت دورا تجاريا أمّا اليوم فإن السياحة الصحراوية جعلت منها مدينة سياحية تجذب الكثير من السيّاح الأجانب وكذلك التونسيين تخلق احتكاكا مباشرا بسكانها فى الأسواق والنزل والمتاجر وغيرها فتحتك لغتهم العربية بلغاتهم الأجنبية ويجرى نوع من التواصل اللغوى بشكل أو بآخر، على أن مجتمع المدينة يحاذر كثيرا من عمليّة التحضّر هذه وربما كانت عمليّة منغلقة بالنسبة للبعض منهم وهذا شأن معظم المدن التى تتعرض للتغيّر الحضارى السريع، ففى بداية مراحل الاحتكاك

(١) محمد المختار ولد السعد، «مسالك القوافل ودورها فى التواصل الثقافى بين طرفى الصحراء خلال القرن التاسع عشر (قراءة فى رحلة الولانى)»، حوليات كلية الآداب، جامعة نواق شوط، العدد الثالث، ٩١ – ١٩٩٢م، ص ٨٥.

يكون المجتمع المقتبس معاديا للتغيّرات المفروضة ولكن فى مراحل لاحقة يزداد قبول طرق حياة الغرباء الذين حصل معهم الاحتكاك أو الاتصال خصوصا من قبل الشّباب والأحداث فى المجتمع المقتبس ثمّ يتحول القبول المعتدل إلى إقبال متحمّس على الأشياء المقتبسة.

يقطن سكان المدينة نمطين من السّكن، يقوم الأول على نمط عربىّ تقليدىّ وهو (الحوش) والنمـط الثانـى يتمثل فى البناء العصرى (الفيلا). وما يلاحظ فى توزيع السـكان بالأحياء السكنيّة طغيان القرابة الدمويّة.

التوسّـع العمرانى لمدينة دوز يمتدّ أساسـا شرقا وشمالا على جانبى طريق قبلى (شمالا) وكذلـك علـى جانبى طريق مطماطة (شـرقا)، وتجديد البنـاء بدوز ظاهرة بـارزة للعيان فالمنطقتين الشـمالية والشرقية تعيشان تجديدا حضاريا مهمّا، أمّا التوسّع العمرانى جنوب المدينة وغربها فهو محدود جدًا لأنه محصور بالواحة القديمة أمّا الوحدات السّياحيّة كلها فقد امتدّت من الناحية الجنوبية خلف الواحة القديمة.

تتميّز المدينة بطابعها السّـياحى الذى اكتسـبته نتيجة وقوعهـا على أبواب الصحراء وكثرة البساتين ممّا ميّزها – قليلا أو كثيرا– عن كثير من المدن التونسيّة من حيث المجال الطبيعى.

الطبيعـة الصحراوية التى تمتاز بها دوز تسـاعد على تطوير القطاع السّـياحى فإقامة الوحدات السـيّاحيّة من الطراز الرفيع وتشـجيع الصناعات الحرفية التى تلبّى منتوجاتها رغبات السـيّاح، كما أن إيلاء السـياحة أهمية كبيرة بالمنطقة فتح الطريق أمام مدينة دوز لكى تصبح أحد المراكز الحضارية المهمّة بالجنوب التونسى.

إن الأحياء الجديدة للمدينة آخذة بهندسـة البناء العصرية وتنتظمها شـوارع فسـيحة وتتخللها سـاحات أملاها المخطط البلـدى للمدينة، الذى جاء ليهذّب الأحياء السـكنية وليقاوم البناء الفوضوى.

وما دمنا قد ذكرنا شـوارع المدينة وسـاحاتها فإننا نشـير إلى إسـهامات بلدية دوز فى بعض المجالات كالترصيف والتعبيد والتشجير والنظافة والعناية بالبيئة كنموذج للخدمات الإدارية ومن الخدمات الأخرى خدمات الماء والكهرباء والهاتف والتنوير العمومى.

لقد تركزت بالمدينة مؤسسات حكومية مختلفة كالمعتمدية وقصر البلدية ومؤسسات الأمن (حرس وشرطة) ودار الشباب والثقافة ومتحف الصحراء وأغلب هذه المؤسسات تركزت فى

الشارع الرئيسى كى يسهل الوصول إليها من قبل طالبى خدماتها وفيما يلى بعض خدمات البلدية. وبوسع الباحث الاجتماعى أن يضع يديه على دلائل النمط الحضارى لمدينة دوز من خلال تيارات التغيّر والتحولات الاجتماعية.

التغيير الحضارى والتجديد فى المدينة:

«إن الحضارة وحدة متكاملة وهى ككل حقيقة متجسدة لها جانبها الفكرى وجانبها المادىّ، ولا يمكن فصلها فصلا بيّنا بين واقع الحال، ولكنّنا نفعل ذلك لأسباب تحليلية، ولنعرف أيّهما أكثر عملا وأفعل تأثيرا فى عملية التغيّر الحضارى، الجانب الفكرىّ، أم الجانب المادىّ»[1].

يتم هذا من خلال الاتصال الحضارى والتحاضر حيث يتمّ احتكاك ما لا يقل عن جماعتين حضاريّتين تختلف أعرافهما الاجتماعية احتكاكا مباشرا عن طريق التفاعل الاجتماعى لسكانهما ولفترة طويلة نسبيًّا، والتأثيرات المادية والمعنوية الناتجة عن هذا الاحتكاك فى سلوك إحدى الجماعتين.

الاتصال المباشر وغير المباشر[2]:

يرتبط الاتصال المباشر أساسا بالتفاعل الاجتماعى الحقيقى بينما ينصبّ الاتصال غير المباشر على انتقال فكرة أو مركب حضارى من جماعة لأخرى دون أن يلتقى سكان الجماعتين وجها لوجه، فشباب مدينة دوز قد يتأثرون بالذّوق الجمالى لشباب باريس عن طريق مشاهدة «موديلات» الخياطة السائدة فى تلك المدينة، وقد يغزو الذّوق الموسيقى والغنائى الأوربى مدننا عن طريق الوسائل السمعيّة البصريّة كالمذياع والتلفاز وأشرطة الكاسيت المتداولة والمعروضة للبيع فى الأسواق. وهذا الاحتكاك لا يخلو من صراع والصّراع يراد به صراعا على صعيد اجتماعى وليس وجها من وجوه النزاع الفردىّ.

سنحاول تتبع صدق هذه الفرضيّة من خلال:

---

(١) د. محيى الدين صابر، التغير الحضارى وتنمية المجتمع، ط ٢، بيروت، منشورات المكتبة العصرية ١٩٨٦م، ص ٨٩.

(٢) انظر فى هذا الصدد كتاب د. حاتم الكعبى، التغير الاجتماعى وحركات المودة، بيروت، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٢م، ص٣٤.

الأمثال الشعبية: سجلّ الحياة الصحراويّة وشبه الصحراويّة:

المثال الشـعبى أو العامّى جنس من أجناس الأدب الشـعبى ترشح به ثقافات الأمم وهو عبارة عن حِكم جمعت فى تعابير تمتاز بالإيجاز والبلاغة والذوق، وهى تدخل فى جميع مظاهر الحياة.. ومن بلاغتها وحسن صوغها يسهل على الإنسان حفظها.

ومـن الأمثلـة التى جمعناها بمدينة دوز نذكـر ما يتعلق منها بالعمـل الذى يعدّ قيمة حضارية تنبذ التّواكل وتعطى الزمّن أهميّة كبيرة وفى تقديرنا أن الاحتكاك الحضارى بين الشـعوب بفعل التجارة جعل أهل دوز ينبذون التّواكل ويعطون للزّمن أهمية اسـتثنائية، والمتتبّـع لواقع مدينة دوز يلاحـظ أنّ الحياة الاقتصادية لا تقوم علـى الفلاحة (النخيل) ولا تربية الماشية (الإبل) بل تقوم أيضا على الوظيفة والعمال بالخارج ومن هذه الأمثلة:

- اخدم بناصرى وحاسب البطّال.
- اخدم يا تاعس على الراقد الناعس.
- خدمة النهار ما فيها عار.
- شاقى ولا محتاج.
- لوكانه بوزيد عمّار راهو عمّر سوانى بلاده.
- الرزق يبغى الملاحيح اللى يباتو سهاره.

يضجرو كيف المجاريح يبيعو نومهم للفقاره

- اللى تخدمه طيعه واللى ترهنه بيعه.
- اللى تخدمه الطف بيه واللى يخدمك طيعه.
- السّارح المشوم يكمّـل عامه.
- الصنعـه بحـر.
- اللى رقـد رقـدت عليه الأيـام.
- كل حـركه فيها بـركه.
- اللى يخـدم خـدمه ياكـل منفـوعهـا.
- اللى ترقـده يا سـارح البـل تجريه واللى ترقـده يا سـارح الغـنم تبكيه.
- بـلاد النخـلة ما تخـلى.

تجـدر الملاحظة أنّ ذبول القيم الرّوحيّة ليس دائما سـلبيا فعدم إعطاء قيمة للوقت فى المجتمع البدوى الصحراوى قديما أملته الظروف الطبيعية والعيش على نمط اقتصادى واحد

أمّا فى المدينة فإنّ مناشط العمل عديدة زاد فى أهميتها الاستقرار الأمنى (سيطرة الدولة على مقاليد الأمور فى الصحراء وكامل ربوع البلاد) فقدر الزّمن حقّ قدره فتداخلت بذلك البداوة مع الحضارة، إن هذه الأمثال الشعبية التى جمعناها منها ما هو متداول فى أنحاء البلاد التونسيّة ومنها ما هو مرتبط ببيئة الجنوب التونسى كرعى الإبل.

أزياء المدينة الشعبيّة:

تمتاز الأزياء الشعبية – التى تقوم على الإبداع والتقليد – فى دوز بتعدّد القطع فلباس الرجل يتألف من الحولى، البرنوس، السورية العربى، السروال، اللفافة، الزمالة، العراقية، البتال الصدرية، الفرملة، الحزام، هذا وتتعدّد قطع الأزياء الشعبية بالنسبة للمرأة ومنها: الملحفة، السورية، الحزام، الطربوشة، الوقاية والبخنوق.

والمتأمل لأزياء النساء المعروضة للبيع فى أسواق دوز وخاصّة سوقها الأسبوعى يلاحظ تعدّد ألوان هذه القطع.

ولعل تفسير الوحيد لتعدّد الألوان أن المدينة تعيش حالة التحرّر الاجتماعى – قليلا أو كثيرا – فظاهرة الحجاب قلت فى المدينة وهو مظهر حضارى ملفت للأنظار.

العادات والتقاليد:

إن ما شهده الجنوب التونسى من نقله نوعية تمثلت فى الانتقال من ترحل البداوة إلى توطين الفلاحة حولته إلى مجتمع ريفىّ يمثل مرحلة انتقال بين البداوة والحضارة، والملاحظ أن كل مرحلة تحمل فى أعماقها قيم المرحلة السابقة لها، «فأهل الريف يحملون قيم البداوة على الرغم من تركهم الرّعى والتنقل وراء المراعى، وكذلك أهل المدن يحملون القيم الريفية على الرغم من احترافهم حرف المدينة، إنّ القيم تتغيّر عند الانتقال من مرحلة إلى أخرى، ولكن بقيّة منها تظل مؤثرة فى تفكير الناس وسلوكهم، هناك أجزاء من التراثيّة الاجتماعية لها قابلية كبيرة على التغيّر، وهناك النقيض من ذلك أجزاء يصعب عليها التغيّر، فهى تقاوم التغير مقاومة شديدة، أمّا الأجزاء الأخرى فتتفاوت فى قابليّتها للتغيّر بين هذه وتلك على درجات شتى، وليس هذا شأن مجتمعنا وحده، بل هو شأن المجتمعات البشريّة كلها، وما جرى عندنا مؤخّرا قد جرى مثله فى أوربا قبل قرنين أو ثلاثة»[1].

(١) حميد المطبعى، على الوردى يدافع عن نفسه، بغداد، الشركة العراقية للطباعة الفنية المحدودة، ١٩٨٧م.

حضور قيم البداوة فى مجتمع مستقر:

حاول الاستعمار الفرنسى شق القبيلة إلى قسمين كبيرين هما : العوينة ودوز وعين شيخين (أو عمدتين حسب الاستعمال الإدارى منذ سنة ١٩٦٩م فى تونس المستقلة) عليهما سنة ١٨٩٤م بل وسع الخلافات بينهما بتعيين «خليفة» وهو ذو رتبة إدارية وسياسية متميزة ينتمى إلى منطقة دوز الغربى فى السنة نفسها وخص هذه المنطقة بشيخ سنة ١٩٣١م، وأجج الخلافات وقرب شقا دون آخر، وواصلت الدولة الوطنية بعد الاستقلال السعى إلى إضعاف اللحمة القبلية – بعد أن زال الخلاف بين الشقين المذكورين بسبب تغير الذهنية التى أصبحت تسمو على الخلافات الضيقة – إلا أن تلك النزعة ما زالت تطفو من حين لآخر بطرق مختلفة منها تقاسم المناصب السياسية والحزبية المهمة بالاعتماد على مقياس الانتماء القبلى، فمثلا يتم تداول مناصب رئاسة البلدية وعضوية مجلس النواب وعضوية اللجنة المركزية للتجمع الدستورى الديمقراطى أى الحزب الحاكم بين أفراد الأقسام الكبرى الثلاثة للقبيلة، وكذلك يتم توزيع المقاعد بالمجلس البلدى توزيعا عدديا قبليا دقيقا ولا يثير هذا احترازا من «النخبة» إن صح التعبير على سبيل الاستعارة – خاصة أن عدد المتعلمين مهم بالجهة، بل إن الاحتراز قد يتوجه أحيانا إلى الأشخاص لا إلى انتمائهم القبلى، وكذلك توزع المساكن داخل المدينة يخضع إلى مقياس قبلى فكل فرع له حى خاص به له حدود مرسومة لا يخرج عنها، ولا يتم إسناد أرض صالحة للبناء لفرد خارج الحى المتخصص لأبناء «عرشة» وعملية الإسناد موكولة أساسا إلى ما يعرف بلجنة التصرف المؤلفة من شيوخ «العرش» ودور البلدية يقتصر عادة على تزكية قراراتها[1].

مكانة المرأة فى مجتمع قبيلة المرازيق:

إن المتتبّع لمنزلة المرأة فى مدينة دوز بل بالجنوب التونسى كله يلاحظ مظاهر تشير إلى تغيّر منزلتها الاجتماعية ولابد من الاعتراف بأن حياة الجيل الجديد من المتعلمات لا يمكن وصفها بالسهولة، فهنّ ممزّقات بين الآراء التقليدية منذ القدم حول دونيّة المرأة عن الرّجل والتى تبدو واضحة فى العديد من مجالات التحرك الاجتماعى فى الإطار الذى يعشن

(١) محمد الأحول، الزوايا والطرق الصوفية بالبلاد التونسية: بمنطقة دوز عينة، بحث غير منشور.

بداخله، وبين مفاهيمهن الحديثة عمّا يجب أن تكون عليه مكانة المرأة وضرورة مساواتها بالرّجل، تلك المفاهيم التى يعمل التعليم والانخراط فى الحياة الإنتاجية للمجتمع والانفتاح على المجتمعات المتقدمة فى العالم على تنميتها وبلورتها بحيث تصبح المثل الأعلى الذى يطمحن إليه، وبعبارة أخرى فهنّ ممزّقات بين تعبيّتهنّ التقليدية اجتماعا ونفسيا وبين طموحهنّ إلى تحقيق ذواتهنّ بالشكل الذى يردن[1].

أمّا بالنسبة للعلاقة بين الجنسين فى دوز فبالمقارنة ما بينها وبين العلاقة فى مدن تونس الأخرى من نقاط عديدة فإنها أكثر تعقيدا من مثيلاتها المجاورة والبعيدة عنها فالفصل بين الرجل والمرأة فى مدينة دوز أملته التقاليد والعادات، تحتفل المرأة بصفة عامّة بالولادة والختان والعرس... (دورة الحياة) فى فضاء خاص بها (الحوش) وللرجال فضاؤهم الخاص بهم، لذلك نرى الشبان والشابات يحاولون كسر هذه الحواجز فى الأعراس بواسطة الأغانى والرقص.

باسْـــم الإلَـــه بْديـــتْ باسْم الإلَه نْـرتِّب لبْيَـــاتْ
للعـرْسْ هانِـــى جـــيتْ غِيرْ زَغْرِتى يا ذابْلِتْ لَنْعَـاتْ

لا شكّ أن الصراع الحضارى الاجتماعى له أثره فى فاعلية التقاليد والعادات إذ نجد أنّ طريقة الخطبة التقليدية قد ذبلت قليلا أو كثيرا فالشاب يتولى بنفسه اختيار شريكة حياته ولا يلتجئ إلى أهله إلا فى الاتصال بكبار العائلة أما بالنسبة للفتاة فرغم أنها لم تتحول إلى طرف فاعل ولا تعامل إلى حدّ الآن كعنصر راشد ومسئول فى الاختيار فإن الثابت حاليا هو استشارتها وعدم إكراهها على زواج لا ترغب فيه ولم يقف التغيير الذى تشهده المنطقة على مستوى العادات عند هذا الحد بل تعدّاه ليشمل الجحفة التى تقلصت مراسيمها بصفة ملحوظة.

إنّ وسائل الاتصال الجماهيرى ومنها الإذاعة والتليفزيون قد كسّرت قليلا أو كثيرا «شوكة» التقاليد والعادات فى دوز فلئن كانت الأمور الجنسيّة تحاط فى العائلة بالسريّة والخوف والتكتم الشديد فينمو الطفل ويبلغ سنّ المراهقة وهو معزول كليّا عن حقيقة ما يجرى حوله وما يدور فى نفسه فتنشأ عنده عقدة نفسيّة ويصبح موضوع الجنس محاطا بالخجل، وفى الوقت ذاته، شأنا من أهم شئون حياته فإنّ التليفزيون والإذاعة قد اخترقا هذا الحاجز.

(١) د. سلوى الخماس، المرأة العربية والمجتمع التقليدى، ط ٢، بيروت، دار الحقيقة، ١٩٨١م، ص ١٥.

لقد كان المهرجان «عبارة عن مشاهد لحركات عريقة تخطط وتنظم كل مظهر من مظاهر الحياة البدويّة السّالفة كالاستعدادات للرّحيل والنجعة طلبا للرزق وكالاحتفال بالأعراس والأعياد»، وذلك قصد منعها من التلاشي والاندثار التام، ولئن زالت تلك الحركات التقليدية أو تكاد من الحياة العادية اليومية فإنها تبقى راسخة فى أذهان الناس فى إطار جديد، إطار المشهد والعرض.

فهذا على بن عبد العظيم يدعو الزائر لمشاهدة المراحيل والهودج وقطعان الإبل:

يالِّى قاصدْ دُوزْ اتْعَالَى تشْبَحْ شيْء عْجِيبْ
مْرَاحِل وجْحَافْ وْطَبَّالَهْ ومْهَارِى وسْبِيبْ
وتِلقْى نَجْعْ إنْ هَزْ أثْقَالَهْ وْتِلْقَى بِلْ غْرِيبْ

ويذكر مبارك الزيتونى الجمل فى عيده قائلا:

عيد الجملْ فِى دُوزْ عنْدَه قِيمَهْ تاريخْ طُولْ الدَهْر يِبقَى ديمَهذ

كما تناول الشعراء مواضيع متعددة ذات صلة بالمهرجان[1].

لقد خرج مهرجان دوز منذ بداية السبعينيات عن إطاره التقليدى ليصبح تظاهرة اقتصادية ثقافية وعلميّة وفنيّة تعبّر وبصدق عن واقع مدينة دوز وما قطعته من أشواط فى النهوض الحضارى، فالمهرجان أصبح نقلة نوعية قياسا إلى مهرجانات أواخر الستينيات من حيث حجم اشتراك الشعراء والفرق الفنيّة والندوات الفكرية من تونس وخارجها أى الأقطار المغاربيّة، فقد اتسمت هذه المهرجانات خلال النصف قرن المنصرم بتنوّع البرامج والأنشطة بالإضافة إلى حجم عدد المشاركين والضيوف والزوار.

الشعر الشعبى بالجنوب الغربى:

مدينة دوز ذات خصوصية متميّزة فى الشعر الشعبى بالبلاد التونسيّة: الطبيعة والغزل نموذجا:

يذهب الباحث محمد المرزوقى إلى أنّ حبّ قبيلة المرازيق للشعر مجمع عليه وقد نبغ فيها كثير من الشعراء الفحول الذين عرفوا بالبلاغة وحسن الصياغة والحكمة وجزالة اللفظ والمعنى وفى السياق نفسه يذهب الشاعر الشعبى بلقاسم عبد اللطيف إلى أن الشعر الشعبى

(١) الناصر البقلوطى، المرجع السابق.

فى دوز غذاء يومى وهذا لا يستغرب فمدينة دوز بها عدد كبير من الشعراء الشعبييّن كتبوا فى شتّى الأغراض ولهم سمعة طيّبة على النطاق المحلى والوطنى والمغاربى أيضا.

ولشعراء دوز بعد الحرب العالمية الثانية مساهمة فى التصدى للمستعمر الفرنسى فاتخذ الشعر الوطنى تعددية كبرى (ثورة المرازيق) أمّا بعد الاستقلال فقد ذبلت – قليلا أو كثيرا – ظاهرة الموقف فى الأعراس وعوّضت بالطبّالة وفى مرحلة ثانية اتخذ الشعر الشعبى – قليلا أو كثيرا – طابع التكسب وخاصّة مع الشعراء الشبّان.

إنّ مما يعلى من مقام الشعر الشعبى فى دوز تداوله باستمرار وإقبال الكثير على حفظه وقد جاء مهرجان الصحراء ليحافظ عليه ويدعمه.

إنّ الغاية من تناول الموضوع ليس تناول الأغراض المتعددة التى يزخر بها الشعر الشعبى بدوز وإنّما هدفنا التنبيه إلى هذه الثروة المهمة من الأدب الشعبى التى تحتاج جمعا وتصنيفا وتحليلا وهذا لا تقوى عليه إلا المؤسسات فالمندوبية الجهوية للثقافة بقبلى بمساعدة بعض مثقفى الجهة مثل محمد العيدى بلغيث والتهامى بن حسن يجعلها قادرة على القيام بهذه المهمة النبيلة، ومما يسهل هذه المهمة أنّ حفظة الشعر كثر وأن الشعراء الأحياء أغلبهم يحتفظون بقصائدهم مدونة.

إن مساهمتنا المحدودة فى هذا المجال الشاسع ستنحصر فى مجالين: مجال وصف الطبيعة والشاعر الشعبى ربيب الصحراء فمنها يستمدّ موضوع وصفه، وسنقتصر على مجالين ينصب الأول على الصحراء – الجمل والنخلة، أما المجال الثانى فهو الغزل.

١ - الصحراء والجمل والنخلة:

(أ) الصحراء والجمل:

إن انتقال قبائل الجنوب عموما من ترحل البداوة إلى توطين الفلاحة جعل الخيام تندثر قليلا أو كثيرا، وفى هذا الإطار يتناول الشاعر الشعبى بلقاسم بن عبد اللطيف الصحراء والجمل ويؤكد على قيمته تاريخيا ويبين منزلته بين وسائل النقل الحديثة، من خلال قصيدة على وزن بورجيلة طالعه مزيود والطالع المزيود هو (ماك تعرفى المرزوقى) وكان بإمكانه القول:

يا صحرتى جيتك جبدنى شوقى حب الجمل تركن سكن فى عروقى

***

يا صحْرْتِى جِيتَكْ جَبَدْنِى شُوقِى ماكْ تِعْرفِى المَرْزُوقِى
حُبْ الجَمَلْ تَرْكَنْ سَكَنْ فِى عْرُوقِى
حُبِّ الجَمَلْ شَغْشَبْنِى نَهَبْنِى سَهَبْنِى فِى الكَنِينْ غَلَبْنِى

(ب) النّخلة:

يؤكد الشاعر تطوّر الوضع الاقتصادى بدوز بفعل تنمية فلاحة التمور إذ بدأت الجهة تساهم فى خلق اقتصاد يعتمد توفير الإنتاج والتبادل التجارى، وصارت الدقلة كما قال الشاعر على عبد العظيم «تقطع البحر أمواجا».

دقلة تعجب فى سوانيها نزهة للفراج
سمحة والغلة تواتيها سقيمة ما تعواج
عليت والحظ معاها طلعت لاخر طاج
ربح الله باع وشاريها لا عاد المحتاج
شاركات تصدر فيها قطعت بحر أمواج[1]

٢ - الغزل:

يكتسى غرض الغزل أهمية استثنائية فى دوز، ولعل المتتبع لعالم المرأة فى الشعر الشعبى التونسى عموما ودوز خاصة يقف على حقيقة مؤداها: إنّ تفصيل وصف المرأة يحتلّ جل القصائد الغزلية على عكس الوصف الإجمالى للمرأة فهو قليل نادر، ولعلّ مردّ ذلك أننا نعتنى بالأجزاء وخاصّة الأجزاء المؤثرة فينا ولذلك ينبرى الشاعر لوصف السّالف، والجبين، والعين، والحاجب، والأنياب... إلخ، والتى غالبا ما تكون هى المباشرة لنا خاصة العين والأنياب[2].

فالصّورة الشعريّة عندما يتّفق عليها مجموعة أنّها جميلة لم تعد خاضعة للذّوق الذّاتى، إذن علينا معا أن نبحث عن سر جمالها هل يعود للفظ ، للصيّاغة اللفظيّة، وهل يعود للمضمون، وهل هو صورة بلاغيّة معهودة ممّا صنفه العرب سابقا، وهل هو استعارة لفظيّة... وهذا يجرّنا إلى دراسة علم البيان لأنه يطبق بيان التعبير فبصبح أوضح وأشمل،

(١) المرجع نفسه.

(٢) مقابلة مع الناقد محمد العيدى بنبلغيث بتاريخ ١٢ مارس ١٩٩٣م بدوز.

فهل هذا التعبير موجود فى الشعر الشعبى والذى أعجبنا يعود لأنّ تركيبته اللغويّة صارت بهذا النمط وهل أن مفرداته مختارة إلى درجة أنّها موسيقية[1].

إن الإلهام الشعرى هو مادّة الغزل الأولى، وهو كتلة من المعانى تجول فى مخيّلة الشاعر حركتها المرأة ولم تحدّد مضامينها بالحروف أو الألفاظ.

إن المرأة ذات إلهام شعرى لدى شعراء دوز، فهذا الشاعر بشير عبد العظيم قد تفجرت قريحتــه حيث ألهمته صبيّة قد هجرته قصيدة طويلة فقال متغنّيًا بوصفها ومؤكدا أنّ حبّه لها لن ينتهي:

عشْرْ سنِينْ طْوالْ فِى الضِّيــــمْ نكْـــالِى ... وعلْ حُبّك مـــا زالْ راسِـــمْ مَوَّالِـــى
عشْرْ سنِينْ تَعَدُّوا كِى نحْسْبُــو السنِـــى ... وقَلْبِى بِيكُمْ صايِرْ مهمُـــــومْ م ا صَبَـــرْ
وفِى وَصْفِكْ يَا رِيدِى محْبُوبْكُــمْ بَـــدِى ... نُوصِف قَدّك سَرْوِلْ كِيفْ طَلْ م الشَّجَـــرْ
وجبينك برَّاقَة فِـى حْـــدَادَه السّمِـــى ... عْلِيهَا القُصَّة دارَتْ قصَّانْهَـــا سَطَـــرْ
رُمَّانَاتْ خْـدُودِكْ رَاوْيَـــاتْ بالنَّـــدِى ... عَلِيهُمْ دمْعْ عُيُونِكْ مِنْ فُرْقْتِـى انْحَـــدَرْ
الوجْهْ عَرِيضْ مَدْوَّرْ والمَضْحَكْ اسْتَـــوى ... وشفَايِفْ مِينْ راهُمْ فِى حالْتِى اخْتَمَـــرْ
النِّيفْ مْسَلِّس سريته فى احدَادته انْحَنَـى ... سِيفْ نْهَارْ الدَّعْكْ إلى اثْقَـــه نَـــزَرْ
الرّقْبَه رِيمْ الجالِى فِـى مَرْتَعَـــة فِلِـــى ... وتغَطّتْ بالسَّالفِ مَهْدُودْ عـــلْ صَـدِرْ[2]

إنّ عالم المرأة فى الشــعر الشــعبى أوسع ممّا ورد فى هذه القصيدة لبشير بن عبد العظيم الــذى تناولهــا ككيان جمالى فقط ، فثمة عديد القصائد الوصفيــة أو الغزليّة تتعرّض للمرأة ككيــان جمــالى وككيان أخلاقى وككيــان فاعل اقتصاديا أيضا أى إن المــرأة لمّا يتغنى بها الرّجل يتناولها كقيمة أخلاقية فيفخر بما لديها من شطارة وهمّة وتربية عربيّة أصيلة، هذا جانب نجده فى الوصف بكثرة ونجد شاعرا يغلّب الوصف الأخلاقى وآخر يغلّب الوصف المادّى وهذا راجع لعلاقة الشّاعر بتلك المرأة التى يتغنّى بها، لأن الشّاعر لا يتغنّى بمرأة مطلقا بمثل ما يفعل الشاعر أبو القاسم الشّابى.

إنّ هذا نادر لدى الشــعراء الشعبيين أمّا تغنى الشاعر بمرأة معروفة فهو أن يتناولها من الجانب الســلوكى والأخلاقى وهذا لديه صور تعــود إلى إرث القيم القبلية العربيّة من كرم وشهامة وحسب ونسب وأنفـة.

(١) المرجع نفسه.

(٢) مقابلة مع الشاعر بشير بن عبد العظيم بتاريخ ١٢ مارس ١٩٩٣م بدوز.

ونجــد من يأخذ المرأة من الناحية الجمالية فقط فيفصّـل فيها الوصف وقد يصل إلى ما نســميّه بالإباحيــة عند عمر بن أبى ربيعة أو امــرئ القيس، ولو وضعنا جميل بثينة وعمــر بــن أبى ربيعة فى العصر الإســلامى لوجدنا أنّ جميل يتغنــّى ببثينة بأخلاقها بنســبها ولم يتغــنّ بجمالها إلا نــادرا، نجد على النقيض من ذلــك عمر بن أبى ربيعة يتغنّى بجمالها الخلقــى فيصفها وصفا جزئيّا (عينها، أنفها، وأعضاؤها كلها) ووصفه وصف مادى فيه إباحيّة.

إنّ هذه الإباحية نجدها فى الشعر الشعبى بدوز خاصة والبلاد التونسية عامّة وأحيانا لا نستطيع أن نرددها بيننا لأنها تقدّم لنا صورا مكشوفة عارية للمرأة وقد يجمع الشاعر بــين الجانبين الصفة الجمالية والصفة الخلقيّة، إن هذا يعود لنظرة الشــاعر للمرأة التى يتغزل بها وإذا كانت امرأة مُطْـلقة نجده يضع لها تمثال آلهة الجمال تشــّبه بالرّيم لأنّ ذلك هو الصّورة الأمثل فى نظر كلّ إنســان فأنت حتى ولو رأيتها بشــكل آخر تمنحها تلــك الصورة حتــى ولو لم تكن فيها اعتقادا أنها الصــورة الأمثل فالصّورة الأمثل نجدها متداولة عند أكثر من شــاعر فإذا قرأنا لشــعراء شعبيين من الجنوب التونسى حتى شماله نجدهم يشبّهون جبين المرأة بالبرق وأنيابها بالتبرورى فهذه الصّور مثالية يقتنيها الشاعر ليمنحها لمن يحب.

إنّ المرأة عند الشاعر الشعبى تظلّ تلك المرأة المحصّـنة، المرأة الممتنعة، المرأة التى يقطع الشــاعر الأهوال من أجلها لأن العادات والتقاليد والبيئة تفرض وجود هذه المرأة المحصنة المحجبة فترى الشاعر يتحدّى، يصف هول الرّحلة من أجل الحبيبة، يصف الموانع التى يقطعها من أجلها وأحيانا قد يشنّ الحرب من أجلها تأكيدا للحب الذى يكنــّه لها وبذلك وجدنا قصائد شــعريّة مطوّلات طويلة تصف مغامرة غراميّة مثلما وجدنا عند عمر بن ربيعة الذى كان يغامر من أجل لقاء حبيبته.

وغاب قمير كنت أرجو غـيوبه وروح رؤيـان ونــوّم سمّـــــر

هذا المعنى نفسه نجده فى الشعر الشعبى:

ثمــّة ثـلاثة يكـرهــو جـيّـــانـى ضو القمر والكلــب والشيبانـــــى

فضوء القمر يكشــفه وكذا الكلب والشــيخ أيضًا لأنّه «حزار» أى مانع من الموانع. هذه الموانــع وجدت عند الشــعراء لتأكيد مدى حصانة المرأة المرغوبة فهى ليســت على حافة

الطّريق فى متناول كلّ شخص وأن ينالها بكلّ حريّة ويسر. فالمرأة فى الشعر الشعبى المرأة المحصّنــة يلاقى مــن أجلها الأهوال والأتعاب وبذلك نجد العديد من المطوّلات الشــعريّة بهذا الغرض.

إنّ علاقة الشّــاعر الشــعبى بالمرأة ظلّت علاقة المعاناة والحرمان وبذلك لو قارنا حرمان جميل بثينة لوجدناه عند العديد من الشعراء الشعبيين بدوز، فى حين أنّ نزعة المتعة التى نجدهــا عند عمــر ومجلس الطّرب وتلك المغامرة التى ينال فيها كلّ منهما مراده قليل وفى أغلب الأحيان تؤخذ فى قالب الفذلكة أو التصوّر فالشاعر الشعبى ظهر يعانى ويكابد الحبّ وهذا الحبّ يجعله بتذلّل للمرأة أنّها دائما مطلوبة وهو يطالبها ويندر أن نجد فى الشــعر الشعبى بالجنوب التونسى الصورة العكسيّة أى إنّه هو المطلوب والمرأة ترسل وتريد مقابلته.

أخيرا نلاحظ أنّ الشــعر الشــعبى شهادة عن الواقع ليســت بالضرورة معبّرة بصدق عن الواقع ولكّنها تعبّر بصدق عن التفكير حول الواقع.

تأصيل الكيان: متحف الصّحراء مثالا:

إنّ التحوّلات السّــريعة التى تمرّ بها مدينة قادت ســنة ١٩٨٧م إلى انطلاق فكرة تكوين متحف الصّحراء فوجدت صدى لدى المشرفين على حظوظ الآثار ومن ثمّ انطلق إنجاز القسط الأوّل موفى ١٩٨٩م وفى سنة ١٩٩٠م بدأت عملية تأثيث هذا الفضاء.

لقد أنيط بهذا المتحف دور بعث التراث الصحراوى وضمان المقوّمات الرّئيســيّة لمكوّناته والتأكيد على الخلفيّات الحضاريّة للإبداعات الصحراويّة فى حقولها المتعدّدة.

أقسام المتحف:

القسم الأول: خرائط بيانيّة مصدرها وزارة الدفاع الوطنى.

القســم الثانى: مجموعة لوحات تحمل ألوان وبر كالأبيض والأحمر والأصفر والأشــقر والأزرق ثمّ لوحة بيانية تقدّم الإبل حسب السنّ ثم مجموعة الأثاث الذى يستعمله الصحراوى فى استعمال الإبل كالراحلة وغير ذلك.

وتُلاحظ كذلك لوحات بيانيّة تحمكل سيمات الإبل التى تكوى بالنّار على إحدى مناطق جسدها للتميز مثلا بين إبل أولاد على الخلايفيّة وإبل الجرادى.

القسم الثالث: قسم اللباس التقليدى بالجنوب الغربى للرجال والنساء بدوز.

تنمية المجال: إمكانيات دوز السياحيّة مثالا

تحتضن المدينة وحدات سياحيّة عديدة وقد أفتتح أوّل نزل سياحى سنة ١٩٧٩م من قبل إحدى عائلات دوز (عائلة عبد المولى) وهو نزل ورود الرّمال ثمّ تتالت الوحدات السـياحيّة فيما بعد مثل التوارق، سان بالم، الصحراء دوز، المهارى، الصحراوى، المرادى..

توجد بالمدينة نقابة التوجيه السياحى ولها مجموعة من الإبل تستغلّ لنقل السيّاح كما توجد بالمدينة بعض وكالات الأسفار التى تملك قوافل الإبل والسيارات مثل:

- أسفار عبد المولى.
- دوز للأسفار.
- المرازيق للأسفار.

تخصّصت هذه الوكالات فى السياحة الصحراوية «وقد استعانت بقوافل الإبل والسيارات التى تجوب الصحراء بيسر وأمان فالسائح ليس لديه الخبرة الكافية ليجوب الصحراء دون دليل (جمّال أو دليل سـياحى)، بعضهم (السياح) دخلوا الصحراء دون مرافقين لهم خبرة بالصحراء فتعرّضوا لصعوبات جمّة».

تحتوى السياحة الصحراويّة نوعين من السياحة على الأقل: سياحة الاستجمام وسياحة المغامرات.

تتمثّـل الأولى فـى دخول أعماق الصحراء على ظهور الإبل أو ركوب سـيارات وكالات الأسفار (tout terrain) وتتمثّل الثانية فى عيش السيّاح مدّة من الزّمن فى أعماق الصحراء. لقـد تطـوّر عدد الزّائرين من ١٩٨٧م إلى ١٩٩٤م مثلا من ٤٠ سـائحًا كرّوا بوكالة أسـفار عبد المولى إلى ١٨٠٠ سنة ١٩٩٤م بالوكالة نفسها[1] ومردّ هذا الإقبال حبّ السّائح للأماكن الصحراويّة يزورها السيّاح على ظهور الإبل أو بالسيارات نذكر على سبيل الذكر لا الحصر:

- نباين
- دكانيس
- قارة عبد الرحيم
- سيدى مرزوق

(١) مقابلة مع السيد محمد عبد المولى (رئيس بلدية دوز وصاحب نزل سياحى) بتاريخ ١٢ مارس ١٩٩٣م بمقر بلدية دوز.

– قصر غيلان

إنّ المتتبّـع للحيـاة اليوميّة لمدينة دوز يقف على ذبول جملة من القيم الاجتماعية بفعل الصراع الحضارى الاجتماعى المباشر وغير المباشر مثل ذبول مراسيم الزواج والجحفة لذلك قامت مؤسسـات وتظاهرات ثقافية تنشـد تأصيـل الكيان وتنمية المجـال مثل: المتحف الصحراوى وجمعية الإبل والمهرجان الدولى.

نتائج البحث:

لقد توصلنا من خلال دراسـتنا هذه لموضوع التداخل بين البداوة والتحضر: مدينة دوز نموذجا إلى العديد من النتائج نجملها بما يأتى:

– مرت مسـيرة مجتمع البحث (قبيلة المرازيق أساسـا) بمراحل عديدة خلال تاريخها الطويل: فقد مرت بالترحال والحل والترحال ثم الاسـتقرار فى نهاية الاحتلال الفرنسـى وبداية الدولة الوطنية حيث عاشت قبيلة المرازيق توطن الفلاحة (الواحات).

– تداخلـت البداوة مع الحضارة التحضر (المدينة والدولة) فى مجالات عديدة كالتعليم والصحة والثقافة... إلخ.

– يعيش مجتمع مدينة دوز تغيرا اجتماعيا يلاحظ فى غذائه وكسائه وبنائه.

– إن الحديـث عـن التدخل بين البـداوة والتحضر لا يعنى بالمـرة أن البدو ليس لهم حضـارة بل المقصود هنا الوقوف على العلاقة الجدلية بين القبيلة والدولة أو بعبارة أخرى العلاقة الجدلية بين المدر والحضر وقد بينت الدراسة متانة هذه العلاقة.

– إن توطين الفلاحة جعل من مدينة دوز مدينة منتجة للتمور بحيث بلغ إنتاجها معية واحات نفراوة كلها ٦٥٪ من الإنتاج الوطنى من التمور.

– إن تدخل الظاهرة البدوية مع الظاهرة الحضرية قاد إلى إجراءات حفظ الذات وتنمية المجال من خلال: المهرجان، المتحف، الجمعيات، السـياحة وهى مجالات تسـاهم فى تأصيل الكيان والتعريف بالمنتوج الثقافى.